ناحية فى حافظ

نشكر للدكتور زكى أبى شادى خدماته الأدبية الكبيرة التى يقوم بها عامةً واصدار هذا العدد لذكرى حافظ خاصةً . واذا كان الحظ لم يسعدنى بأن أكتب عن شوقى فانى أجد الفرصة سانحة لأن أقول كلمة عن حافظ فى أهم ناحية من حياته وتقسيم حافظ من حيث هو فكرة التَمَتْ فى الوجود وحيوية لها ما للكائن الحىّ من مزايا هى :

١ — شعره الذى يصوّر فيه نفسه ونفسية الشعب ويعبر فيه عن آماله وآمال وطنه وعن الأمة وكل ما يتحرك فيها أو ما يتطلبه لها .

٢ — نفسه الهائجة الثائرة العالية التى تبلغ عنان السماء فى الارستقراطية والتى تصدّها عظمة المال والجاه فتنزل بها الى الحضيض فتتطرف فى الديمقراطية الى درجة كبيرة ، ونفسه العابثة البائسة المتشككة .

٣ — حياته المتناقضة المملوءة أملاً وبؤساً وسعادةً وألماً وخوفاً وشجاعة وحباً وكراهية .

وأظهر شىء فى حافظ من حيث هو كتلة حيوية تنقسم هذه الأقسام : نفسه وحياته وشعره . ونفسه هى القوة الموجهة لحياته من حيث عبوسها أو بؤسها فتظلم الدنيا ، ومن حيث أملها وانشراحها فتظهر العالم أمامه كله سرور وانشراح وبهجة وأنس . وشعره هو المظهر أو العارضة التى ترينا نفسه وحياته وتفاعل العناصر من أثر النفس فى الحياة ومن أثر الشعر فى هيجان النفس أو هدوئها وظلمة الحياة أو بهجتها . ونفس حافظ ليست مثل نفسى ونفسك ، فلو كانت كذلك لعدّ حافظ واحداً مثلنا ، ولكن نفس حافظ كقلبه وقلبه هو قلب مصر وحياته هى حياة مصر ، فكل حادث يؤثر فى مصر نجد أثره فى نفس حافظ وقلبه وحياته وشعره أيضاً . والألم الذى يساور نفس حافظ والذى يؤثر فى نظره للدنيا ويتأثر بالتالى به شعره هو ألم مصر ، والبؤس الذى يساور نفسه هو مظهر نفسه ومظهر حياته ومظهر مصر أيضاً . وهذا التآلف بين حافظ وحياته وشعره ومصر فيه نصيب كبير من الحقيقة ، وهناك تآلف آخر بين الشاعر والفنان فى حافظ تصبغه صبغة البؤس التى تلازم حافظ فيكون حافظ الشاعر المتوقد الرقيق والفنان الثائر المتشكك الحرّ الذى لا يراعى القيود ولا يعبأ بها ، وهناك حافظ البائس الذي يدمث الثورة على التقاليد والتشكك والهياج .

وهناك المصادمات ذات الأثر العميق الذى يبلغ من نفس الانسان — نريد أن نعرض فى حافظ حتى نعرف كيفية تحول نفسيته وتكوينها على هذا الشكل الغريب. وأول تلك الصدمات التى صدمت حافظ هى موت والده وهو صغير مما جعل فى نفسه أبلغ الأثر لأنه صار يتيماً لا أب له فأورثه هذا حزناً كبيراً تغلغل فى قرارة نفسه وأثر فى حياته أثراً كبيراً، وكانت هذه أول صدمة له فى حياته ومستقبل عزيمته.

أمّا الصدمة الثانية فهى تمكن النزعة الأدبية منه وهذه الروح الشعرية التى هفت به وتمكنت من صبغه بلونها والتى تبعث إلى نفس الشاعر عوامل الشاعرية من رقة الشعور واتصال هذا بالرثاء لآلام الناس ومواساتهم وتلازم هذا الشباب والنفس المتقدة المرحة الثائرة فى حافظ، وفى اجتماع هذين معاً مايجعله لايرضى بالحياة العسكرية الخشنة من جانب لأنه شاب له أمل واسع، وهو لا يرضى بالحياة العسكرية أيضاً من حيث أنها مذبحة ودمار، وهذا مما لا تميل اليه نفس الشاعر ذات الحنان والرقة.

فهاتان الصدمتان: تنازع الروح الشابة والروح الشعرية مع العسكرية من حيث هى خشونة وقتال دموي والألم الدفين الذى صادمه فى أول ملامسته للحياة بموت أبيه — لهما أثرهما البالغ، وأثر هاتين الصدمتين كبير فى نفس حافظ وبالتالى فى شعره: فهو الذى صبغ نفسه بصبغة التشكك والثورة والبؤس، وكان شعره صورة لهذا التفاعل فى نفسه وحياته.

هذه الكلمة هى نظرة سريعة مختصرة فى ناحية من حافظ ابراهيم الشامخ الضخم الذى لايمكن لقلمى الضعيف أن يوفيه حقه، ولا أن ينصرف اليه بحكم شواغله وضيق وقته. وهناك نواحٍ أخرى فى حافظ عن شعره وأدبه وأثرهما فى الأدب المصرى الخاص والأدب العربى على وجه عام وأخلاقه ونفسه وأثر كل ذلك فى نظرته الفلسفية الى الحياة.

وأعيد فأكرر شكرى للدكتور أبى شادى لهذه العناية وهذا التكريم لذكرى حافظ ابراهيم شاعرنا القومى ؟

احمد أنور الجندى